

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

م. هناء جاسم السبعواوي
مركز دراسات الموصل

مقدمة :-

لقد اهتم العديد من الباحثين والدارسين بموضوع الحكاية الشعبية وذلك على اعتبار أنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من التراث الشعبي والذي له أهميته الكبيرة في مسيرة العلم فهو لا يقل شأناً عن بقية العلوم الأخرى. فنجد مثلاً هناك من الباحثين والدارسين من انصب جل جهدهم حول الموطن أو المنشأ الأصلي للحكاية الشعبية، وهناك آخرون من اهتم بموضوع الجمع والتبويب ولهذه الدراسات أهميتها وضرورتها بالنسبة لتراث بقيت أجزائه متناثرة شفاهاً على السنة الكبار من الجدات والأجداد. ألا أننا ينبغي أن نخرج إلى مسائل أخرى مهمة في موضوعات التراث عن طريق توظيف التراث في الدراسات الاجتماعية وذلك من خلال التركيز على دراسة الحكاية الشعبية الموصلية باعتبارها واحدة من التأثيرات الشعبية والتي تحمل في بعض جوانبها ملامح وخصائص عن المجتمع الموصل التقليدي الذي ترعرعنا به. وذلك على أساس إن الحكاية هي نابعة أصلاً من طبيعة المجتمع نفسه فهي تمثل انعكاساً طبيعياً لحياة الإنسان باعتبارها واحدة من الأساليب التي من خلالها يعبر المجتمع عن نفسه وأفكاره.

لقد جاء البحث من ثلاثة مباحث خصص الأول للإطار المنهجي للبحث أما البحث الثاني فقد تناول الحكاية الشعبية منتوج اجتماعي، في حين جاء المبحث الثالث عرض نماذج من الحكايات الشعبية الموصلية التي تعكس خصائص المجتمع الموصل التقليدي ثم توصل البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات الخاصة بالبحث.

المبحث الأول

الإطار المنهجي للبحث

تحديد مشكلة البحث :-

عند دراستنا لأي مجتمع من المجتمعات وبيان أهميته كان لابد لنا من التطرق إلى أهم السمات والملاح التي تتميز بها المجتمعات، والمجتمع الموصل باعتبارها واحداً من المجتمعات فهو يتميز بالعديد من الخصائص سواء كانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية أم دينية، تلك السمات كان لها طابعها المميز عن العديد من المدن المحيطة بها والتي اكتسبها عبر تاريخه الطويل وامتداده الحضاري فضلاً

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

عن طبيعة الأحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مر بها^(١)، وبغية الوصول إلى تلك الخصائص ودراستها فقد كان هناك اهتمام كبير من قبل عدد من الباحثين والدارسين بدراستها بمجالاتها المختلفة كالدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية والتراثية، ودراستنا هذه جاءت مكملية لتلك الدراسات ولكن بأسلوب جديد من خلال استنباط خصائص المجتمع الموصل التقليدي في عدد من حكاياته الشعبية نفسها وبوجهة نظر اجتماعية وخصوصاً وان الحكاية تمثل مرآة العصر والتي تبين قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم... الخ وفي ضوء ذلك نحاول في بحثنا أن نتعمق في محتوى الحكاية لنرى إلى أي حد كيف يمكن أن تعكس لنا الحكاية خصائص مجتمعنا سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية دينية

أهمية البحث:-

تتجلى أهمية البحث بما يأتي :

من الناحية النظرية

- تأتي أهمية دراسة الحكاية الشعبية من أهمية التراث نفسه وذلك لان الحكاية تمثل جزءاً من تراث الأمة وتاريخها وحضارتها ومرآة له.

- أما من الناحية الواقعية أو العملية

فهي تمثل إضافة معرفية في الأدب من وجهة نظر اجتماعية والتي يمكن الاستفادة منها من قبل الباحثين والدارسين مستقبلاً.

أهداف البحث :-

يهدف البحث إلى ما يأتي :

التعرف على خصائص المجتمع الموصل التقليدي من خلال نماذج من الحكايات الشعبية الموصلية.

تحديد المصطلحات العلمية

الحكاية الشعبية :-

هي الخبر الذي يتصل بحدث قديم عن طريق الرواية الشفهية من جيل لآخر أو أنها حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة وهي تتطور مع العصور وتتداول شفاهاً كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية الصرف أو الأبطال الذين ينعون التاريخ^(٢).

كما يمكن تعريفها بأنها تلك الحكاية التي يتناقلها الناس عن طريق الرواية الشفهية منذ القدم ويلعب الخيال الشعبي دوراً كبيراً في صياغتها وفي تأطير بعض الأحداث التاريخية والشخصيات بالمبالغة والغرابة^(٣).

أما تعريفنا الإجرائي للحكاية الشعبية فهو:-

سرد شفاهي يقوم به شخصاً ما لإحداث يظهر فيها قيم المجتمع وعاداته وتقاليده وأسلوب العيش بحيث تعتبر مرآة للزمن والمجتمع الذي نشأت فيه الحكاية.

المجتمع :-

جماعة من الناس لهم ثقافة مشتركة ومتميزة تحتل حيزاً إقليمياً محدوداً وتتمتع بشعور الوحدة وتتنظر إلى ذاتها ككيان متميز^(٤).

أما إجرائياً فيعرف المجتمع بأنه:

وحدة تنظيمية تتكون من عدد ليس بالقليل من الأفراد في بقعة جغرافية محددة يحملون سمات وخصائص مشتركة تميزهم عن غيرهم في المجتمعات الأخرى.

المبحث الثاني/ الحكاية الشعبية منتوج اجتماعي

عند دراستنا للحكاية الشعبية كمنتوج اجتماعي لا بد من ربطها بالتراث الشعبي للشعوب والمجتمعات وذلك على اعتبار إن الحكاية جزءاً مهم من التراث الشعبي لأي بلد، فالتراث الشعبي يمثل منظومة لمختلف الفنون والآداب الشعبية كالحكايات والسير الشعبية والأزياء والتقاليد والأعراف السائدة التي تعبر عن أشكال ونواحي الحياة الاجتماعية ومضامينها الإنسانية المختلفة وأنماط حياتية متنوعة وغنية، فالتراث الشعبي يعتبر نتيجة للتراكم الثقافي والفكر المستمر والتي تعود جذوره إلى خبرات طويلة للشعوب منذ ما قبل التاريخ وحتى وقتنا الحاضر.^(٥) فأهميته لا تقل عن أهمية الآثار بل حتى التقارير الحية والإحصاءات فهو يقدم مادة أولية عضوية تساعد في معرفة الشعب معرفة لا تغيب عنها أدق التفاصيل، ونظراً لأهميته الكبيرة فقد لفتت إليه أنظار الباحثين العرب منذ حوالي منتصف هذا القرن فبدأوا العناية به وكان أول ما أولوه اهتمامهم هو السير الشعبية وكان رائداً في هذا الاتجاه هو الدكتور عبد الحميد يونس^(٦) والحكاية الشعبية تمثل إحدى جوانب المأثورات الشعبية التي تصور جوانب حياة الإنسان اليومية الثقافية والسلوكية من أمثال وتقاليد الأفراح والأحزان والأعياد وحكم وزي الشعبي وأشكال المعيشة وغيرها مما ورثته الأجيال بعضها عن بعض على مر التاريخ حتى وصلتنا كما نعرفها في صورتها الحالية.

وكما معلوم فإن الموروثات الشعبية ذات أصول قديمة موغلة في التاريخ^(٧) فمثلاً الحكاية العراقية تعتبر من اعرق الحكايات في العالم ولعلها المنبع الأول لأغلب الحكايات^(٨) فسكان بلاد الرافدين قد امتازوا في رواية القصة في العصور القديمة، ذلك أن التراث العراقي القائم في الحضارات البابلية والسومرية والأشورية يمثل منبعاً مضمونياً فكرياً للحكايات على اختلاف أنواعها فضلاً عن التراث الإسلامي وما بعده فهناك ملحمة كلكامش. وأسطورة الخلق البابلية. وقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والسير الشعبية التي وردتنا عن العصور التي سبقت الحضارة الإسلامية^(٩). وانطلاقاً من تكويناتها فإن الحكاية الشعبية تمثل فن الشعب وأسلوبه في التعبير عن حياته وأفكاره^(١٠)، كما أنها ذاكرته التي تحفظ وتنقل ما يحفظ إلى من يأتي من الأجيال وناقلة الخبرات والمعارف^(١١) وهي تمثل كذلك فن الأسرة والبيت لذلك فهي تخضع للمنطق الهادف فلا تفحش بالقول ولا تصطنع الكلمات

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

الجارحة^(١٢)، فالحكايات عامة ذات طابع إنساني ومغزى أخلاقي فهي تستهدف غرس المبادئ والمثل العليا في النفوس.

ومدينة الموصل باعتبارها وريثة حضارة متقدمة فمن الطبيعي أن تكون غنية في حكاياتها وأساطيرها^(١٣). فالحكاية الموصلية بوصفها نوعاً حكاياً شعبياً منتزعة من الحياة اليومية ملتزمة بخصائصها وميزاتها ونسقتها الذي يجعلها تكتسب فرادة ونوعية خاصة، نظراً لأنها تشكل في بيئتها ولغتها التي تفارق بينات أخرى ولهجات أخرى. وكما هو معروف إن للموصليين صفات وسمات ميزتهم عن غيرهم من المجتمعات ولا سيما لهجتهم العامية^(١٤)، أضف إلى ذلك جنوحهم نحو الاقتصاد، فلقد تميزت مدينة الموصل بتنظيم اقتصادي منفرد ونزعات استثمارية وتحسينية وتدييرية مستقلة والتي يعزوها بعض الكتاب والمؤرخين إلى طبيعة الأحداث التاريخية والنكبات التي مرت بها المدينة، فهذه الأمور أحدثت في المدينة وأهلها طابعاً اجتماعياً واقتصادياً تتميز عن غيرها من المدن ممثلة بما ذكرناه سابقاً بالتحسب للمستقبل والتكشف والتدبير وخصن المؤن الغذائية تحوطاً لعاديات الزمن^(١٥). كما تمتاز المدينة من جانب آخر بروز وسيادة التيار الديني والروحي في المدينة عبر قرون عدة حيث لا زالت القيم والمفاهيم الدينية هي التي توجه علاقات الناس وروابطهم الاجتماعية المختلفة^(١٦)، إلى جانب ما عرفت به المدينة بسمتها التجارية وذلك من خلال وجود مهنة التجارة إلى جانب العديد من المهن الأخرى التي اشتهرت بها المدينة، أما عن الجانب الاجتماعي في المدينة فهي أبوية السلطة ذات قدرة عالية في ضبط وتوجيه الأبناء^(١٧) حيث يتمتع الأبوان في الأسرة الموصلية بمكانة وهيبة اجتماعية عالية وسلطة مطلقة في تقرير جميع الأمور ثم يليه الابن الأكبر، لذا نجد اهتمام الأسرة التقليدية بالذكر أكثر من الإناث^(١٨) ومن المفيد بالذكر أيضاً أن قيم الصدق والجد والعمل والوفاء بالعهد ومعاونة الفقير واحترام الصديق والمشاركة في أحزانه وأفراحه وطاعة الوالدين كانت من أهم المرتكزات الأساسية لعملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة الموصلية والتي أكدها لنا الصوفي^(١٩)، إلى جانب ما يتسم به مجتمعنا من صفات المروءة والشجاعة فضلاً عن ما يتميز به مجتمعنا كذلك من روابط عائلية جيدة إلى جانب الروابط الوثيقة بين الأبناء أنفسهم^(٢٠). أما عن المرأة فإن لطبيعة المجتمع الموصل حتمت التحفظ على المرأة داخل المنزل أو تحديد حركتها إلا أن هذا لم يعن أبداً احتقاراً للمرأة أو تصغيراً من شأنها بل كان اهتماماً بها وحفاظاً عليها^(٢١)، إلى جانب صفات وسمات أخرى موجودة في المجتمع الموصل.

وانطلاقاً من هذا فقد انعكست صفاتهم وتقاليدهم وتكويناتهم الاجتماعية في قصصهم وحكاياتهم^(٢٢). فللحكاية الموصلية طعم خاص في الاستماع واللهفة إلى النقاط المعنى المتكامل^(٢٣) فهي شأنها شأن الحكاية في كل مكان^(٢٤) وزمان تستمد مقوماتها من الواقع الأزمني والمكاني، فكما هو معلوم أن الحكاية هي من المحاكاة أو التقليد هذا مما يدل على أن الحكاية ترتبط بمحاكاة وعلى هذا الأساس تكون الحكاية استرجاعاً للواقع، إلى جانب إن الحكاية فيها أيضاً تصويراً للحياة الواقعية بأسلوب

واقعي فضلاً عن ما تحمله من تصوير ووصف لقطاعات من الحياة الإنسانية. وذلك على أساس أن الحكاية تمثل نسيج متكامل نسجه الشعب متضمناً تقاليده وعاداته وتجاربه وخبرة لحياة يقدمها في أسلوب فني وبناء روائي^(٢٥). وسنحاول في المبحث اللاحق إبراز ما في الحكاية الشعبية الموصلية من خصائص تعكس لنا ملامح مجتمعنا الموصلية.

المبحث الثالث/ خصائص المجتمع الموصلية من خلال نماذج من الحكايات الشعبية الموصلية

إن الحكاية الشعبية تعد البنية المركزية التي تخدم بأصنافها المتعددة جوانب الحياة، فالحكاية الشعبية على اختلاف أنواعها تؤدي دوراً هاماً وبارزاً ومؤكداً من خلال الوظيفة التي تقوم بها في المجتمع. ومن هنا تبرز أهمية هذا الفن الأدبي الشعبي بل تبرز أهمية دراسته^(٢٦) في أنها تساعدنا في التعرف على الملامح البارزة للمجتمع الموصلية من خلال الحكايات الشعبية. ويجدر بي أن انوه مسبقاً إلى أن الحكايات الشعبية التي سوف اعتمد عليها في هذا المبحث مقتبسة من كتاب (حكايات الموصل الشعبية)* الذي ألفه الدكتور احمد الصوفي والتي نبين الخصائص التي يتمتع بها المجتمع الموصلية التقليدي سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم دينية والتي ميزته عن غيره من المجتمعات الأخرى من خلال الحكايات التي يتم عرضها، تشير حكاية السبع مطلقات في البدء إلى إعطاء وصف أولي لمدينة الموصل من خلال الإشارة إلى الأسوار المحيطة بالمدينة، فقد وردت في الحكاية (كان يوجد للموصل سور دابر مدارها، وفي هذا السور أبواب) هذا مما يحدد لها الصفة المكانية المحددة للمدينة^(٢٧) من خلال الأسوار المحيطة بها، أما عن الباب فكما هو معروف إن أبواب الموصل كانت منافذ لربط المدينة والقرى المحيطة بها أما الأبواب الواقعة على نهر دجلة فقد كانت بمثابة طرق تصل المدينة بالنهر لتمكن السكان من اخذ ما يحتاجونه من ماء الشرب والقيام بغسل الملابس^(٢٨)، والهدف من ماء النهر هو فعلاً ما وجدناه في الحكاية والتي تذكر لنا أن (وحددي من نسوان البلد تحمل كارتها على رأسها حتى تغسل حواسها على شاطئ النهر)^(٢٩).

ومن جانب آخر نجد إن لهذه الحكاية عدة مسائل تتفق وطبيعة المجتمع الموصلية فبعض من الحكايات التي ترويه النساء المطلقات تأخذ منحى ديني والأخرى اقتصادي وفيها كذلك الاجتماعي، فنجد مثلاً الجانب الديني من خلال وصف إحدى النساء زوجها بالتدين ففي حكاية المطلقة الأولى تذكر لنا إن زوجها (كان صايم مصلي يحافظ على صلواته الخمس)^(٣٠)، وكذلك الحال بالنسبة لحكاية المطلقة الخامسة عندما توصف زوجها أيضاً (وكان زاهداً متعبداً يحبه الناس لحسن معاملته فذهب لأداء فريضة الحج)^(٣١). هذا مما يفسر لنا بروز وسيادة النزعة الدينية في المجتمع من خلال تمسكه بأداء الفرائض الدينية هذا مما جعل المدينة يغلب عليها الطابع الديني والروحي ومثل هذا التمسك بالالتزام الديني كان له دوراً كبيراً في إقامة علاقات وروابط طيبة مع الناس وروابط اجتماعية متينة. وثمة جوانب أخرى حاولت الحكاية ان تذكرها لنا وهي ملامح وتصرفات الموصلين نحو الاقتصاد ففي حكاية المطلقة الثانية

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

تذكر لنا (في احد الأيام غلي دهن السمن في الموصل وصار يكلف زوجي كثيرا من المصروف فقلت له خلي نقنت جيب لنا طرف كيش لاسليها واجعل منها دهنا فهي اصرف وارخص)^(٣٢)، هذا مما يعطينا دلالة واضحة على خاصية التدبير والتخطيط من قبل المرأة الموصلية خصوصا وان المجتمع الموصل يتسم بالحرص والتدبير والتخطيط في إدارة شؤون البيت أي انه مجتمع يؤمن بأهمية التدبير في الحياة وهذا ما تحاول الحكاية أن تطلعنا عليه من خلال المرأة الموصلية بأنها امرأة مديرة في أمور البيت والميل نحو الاقتصاد فصفة التدبير والجنوح نحو الاقتصاد فهي من الصفات المتأصلة في مجتمعنا الموصل. ومن جهة أخرى نلاحظ الجانب الاجتماعي والذي حاولت الحكاية أن تعكسه لنا من خلال المرأة ذاتها بأنها امرأة طائعة لزوجها إلى ابعدها ببطبيعة الحال ما يتطلبه المجتمع الموصل من المرأة في أن تقدم لزوجها كل ما يحتاجه، وذلك من اجل إرضاء الزوج وتوفير سعادته أي أنها تخضع للزوج وتطيعه طاعة تامة وهذا ما لاحظناه في كل الحكايات التي ذكرتها لنا النسوة السبع مطلقا والتي كانت بالمقابل تنعكس ضدها فنجد أن المرأة رغم ما تقوم به من أعمال لإرضاء زوجها إلا أنها بسبب بساطة تفكيرها وجهلها وقلة افقها يوقعها بنتائج معكوسة، تؤدي بها إلى الطلاق في كل مرة فنذكر مثلا على سبيل المثال حكاية المطلقة الرابعة التي لم ترزق بولد تذكر لنا الحكاية (اشتد خوفها من أن يأتي زوجها بضرة على رأسها فأشارت عليها جاريتها أن تزور الشيخ عبد القادر الكيلاني ولان المرأة لا تعرف الطريق لبغداد فقامت بصب الماء من الحوش وجلبت بالقصعة ووضعها بالماء وجلست فيها وتصيح "دخيلك ياشيخ عبد القادر دخيلك يا شيخ عبد القادر أعطني ولدا" يكون قررة عيني" وعندما دخل عليها زوجها وشاهدها بهذا الحال سرعان ما طلقها).^(٣٣) هذا مما يدل على سذاجة تفكير المرأة في أنها تقوم بعمل تريد من خلاله أن ترضي زوجها فهذا العمل ينقلب ضدها ويؤدي بها إلى الطلاق كما أن الحكاية تحمل مغزى آخر وهي إن طبيعة المجتمعات النسوية تؤمن بزيارة الأضرحة والمرافد الدينية لطلب حاجة وهذا ما وجدناه في الحكاية أعلاه.

وبالمقابل تحاول الحكاية من جانب آخر أن تعكس لنا شخصية الرجل في الحكاية بأنها شخصية إلى جانب التزامها الديني فهي شخصية تنسم بأنها متهورة وشخصية دكتاتورية مسيطرة على المرأة وهذا ما لاحظته من خلال خوف المرأة من الرجل، إلى جانب أنها شخصية متسرعة في اتخاذ قرار الطلاق لأتفه الأسباب.

كما حاولت الحكاية من جهة أخرى أن تحدثنا عن طبيعة المهن الموجودة في المدينة فمثلا وجدنا بروز مهنة التجارة والتي تعكس لنا طبيعة المجتمع الموصل في الجانب المهني وهذا بطبيعة الحال يعود إلى موقع المدينة الاستراتيجي المهم، فمثلا ذكر لنا حكاية المطلقة الخامسة إن زوجها كان (تاجر صابون)^(٣٤). فهذه المهنة هي واحدة من المهن الحرة التي اشتهرت بها مدينة الموصل آنذاك وكذلك الحال لحكاية المطلقة السادسة (كان زوجي تاجر طاقات حرير، يسافر الى الشام)^(٣٥)، هذا مما

يعطينا دلالة أو إشارة إلى أن للمدينة علاقات تجارية بينها وبين الدول العربية المجاورة، وهذا يعود كما أسلفنا سابقاً بحكم موقع المدينة المهم. أضف إلى ذلك فقد حاولت الحكاية أن تنقل لنا شريطاً حياً نسمعه ونراه في البيت الموصلية قديماً فتطلعك الحكاية مثلاً على أنواع الأكلات التي تشتهر بها الأسرة الموصلية مثل (الباجة) كما في الحكاية السابعة والتي تصف لنا (في يوم من الأيام خطر ببالي أن اعمل باجة)^(٣٦).

وكما هو معروف فإن العوائل الموصلية تشتهر بها حيث تهتم النساء الموصليات اهتماماً كبيراً بعمل مثل هذه الأكلات أما عن أدوات البيت الموصلية المستخدمة فيه فنجد (الاتقي) كما في الحكاية الأولى (فلم أجد بالاتقي حطباً)^(٣٧) وهي واحدة من أدوات الطبخ التي يستخدمها البيت الموصلية آنذاك. أما عن القيم الاجتماعية المتجذرة في المجتمع الموصلية هي موقف الرجال من المرأة وهذا ما بينته لنا الحكاية (السبع بنات والسبع بنين) فقد عكست لنا الحكاية تفضيل البنين على البنات وهذا يعود بطبيعته إلى طبيعة المجتمع الموصلية نفسه بأنه مجتمعاً أبوياً فتذكر لنا الحكاية أنه (أبو البنات كان دائم الحزن والألم في حين كان أبو البنين محترماً بين الناس لوجود هذا العدد من ذريته بينما ظل الآخر يكذب ويكدر وليس لديه من يعينه)^(٣٨). فهذه الحكاية تحاول أن تبين لنا الاهتمام الكبير الذي يحظى به الأبناء الذكور. فالرجل دائماً يفتخر بما لديه من أبناء ذكور، وذلك لأنهم يمثلون قيمة تدعو إلى التباهي والتفاخر إلى جانب ما يمثلونه الذكور من قوة وبخاصة في الأزمنة الغابرة، إلى جانب ذلك فأنهم يعتبرون استمرار لديمومة الحياة بل الاستمرار لحياة الأب.

كما تحاول الحكاية من جهة أخرى أن تتصف الجنس الآخر وذلك من خلال رسم صورة عن المرأة في المجتمع الموصلية من خلال ما تتحلى به من صفات، ممثلة بقدرتها الممتازة وقوة إرادتها وشخصيتها في تقبل التحدي والخروج للتجارة وهذا ما عكسته لنا الحكاية عندما طلبت من والدها بعض المال لغرض التجارة فنكرت لنا الحكاية (إن النساء لا يتهيبن العمل وإن التجارة والأشغال المثمرة ليست قاصرة على الرجل بل يمكن للمرأة أن تقوم بها. فإذا سمحت لي أن تزودني ببعض مالك اذهب به في تجارة)^(٣٩). هذا مما يدل على أن هنالك من النساء من لديه القدرة والشجاعة في خوض معترك الحياة، إلى جانب ذلك فهو إشارة أيضاً على ذكائها الفردي في استغلال الفرصة وقدرتها على التخطيط بحكمة وعقلانية وهذا ما حاولت أن تترجمه لنا الحكاية من خلال قدرة الفتاة في تنمية ثروة أبيها. فالحكمة والعقلانية وحسن التدبير والتخطيط وصولاً إلى النجاح في الحياة هي واحدة من الملامح الرئيسية التي تتمتع بها النساء في مجتمعنا الموصلية.

كما تعكس الحكاية من جهة أخرى صفة التواصل الاجتماعي بين الأقارب من خلال مساعدة الفتاة لأولاد عمها بعد فشلهم في التجارة فتذكر لنا الحكاية (ما قولك فيما لو أعطيتك بضاعة وزودتك بالأموال فترجع إلى مسقط رأسك ظافراً غنياً كما كنت في الأول)^(٤٠). فهذا التضامن العائلي بين الأقارب هي

خصائص المجتمع الموصلية من خلال حكاياته الشعبية

تعكس صورة عن طبيعة المجتمع الموصلية في إحدى جوانبه الممثلة بمدى تمسكه بالقيم الراسخة والتقاليد الموجودة في مجتمعنا ممثلة بروابط عائلية متينة.

- وتحاول حكايات أخرى أن ترسم لنا صور عن صفات المرأة في المجتمع فتظهر صورة المرأة من خلال وقوفها إلى جانب زوجها بحثه عن العمل وتشجيعه على كسب الرزق فتختار له عملاً وهذا ما عكسته لنا (حكاية زوجة ملا ناصر الدين) فتذكر لنا (كان العمل الذي اختارته له أن يكون عطاراً يدور في القرى ويبدل البضائع بالحنطة والشعير، ولما كان هذا العمل يحتاج إلى صرمايه فقد عمدت الزوجة المسكينة إلى بعض المال الذي ادخرته لأيام العازة)^(٤١) وهي بهذه تريد الزوجة أن تضع مكانة مرموقة ومحترمة لزوجها بين رجال المجتمع وهذا ما عكسته لنا الحكاية. من جانب آخر والتي تدل بوضوح على المرأة وحسن تدبيرها من خلال ادخارها لبعض الأموال، وهذا يتفق وطبيعة مجتمعنا الموصلية في مسألة ادخار الأموال تحسباً لعاديات الزمن. ومن جهة أخرى يعبر لنا موقف المرأة المثابرة من أجل إسعاد أسرتها والمحافظة على ديمومة الحياة فيها.

إلى جانب ذلك فإن هناك ميزات أخرى اتصفت بها المرأة من خلال تجسيدها للوفاء والإخلاص لزوجها فضلاً عن شجاعتها ففي حكاية (الفتاة الباسلة شمس النهار) والتي بين لنا محاولة العجوز إغواء الفتاة ولاسيما بعد سفر زوجها بشاب فاسد فتذكر لنا الحكاية (في ذات يوم، ذهب الأمير الزوج إلى خارج المدينة، فاعتتمت العجوز الماكرة هذه الفرصة وطلبت من الأميرة أن تزور دارها وهي مجاورة للقصر، وازداد الإلحاح لم يسع الأميرة إلا الموافقة على ذلك، وأخذت سبيلها إلى دار صديقتها الماكرة التي لم تكن إلا دار الشاب... فأيقنت أنها وقعت في شرك هذه المحتالة...، غير أن المرأة الذكية لن تعدم حيلة تخلص بها من المأزق الحرجة... فكنتم ما بها من قلق... وقامت تسير وتحظر في أرجاء الغرفة مظهرة عدم اكتراثها بالأمر... وبعد أن اطمأن باله... فقالت له كما ترى إني الآن بين يديك...، فهناك هذا القبقاب النفيس الصنع هدية مني وادخل علي السرور والانبساط بمحاولتك لبسه والجري به في صحن الدار... فلبس الشاب القبقاب... وما لبث أن تسللت وراءه ودفعته فسقط سقطة شنيعة فهجمت عليه...، ثم فتحت الباب وخرجت هاربة)^(٤٢). هذا مما يفسر لنا عفة الفتاة وإخلاصها لزوجها مهما مرت بظروف صعبة وملابسات إلى جانب ذكائها في التغلب على المكيدة التي وضعتها لها المرأة العجوز وهذا يدل من جهة أخرى أيضاً على إن من الممكن أن يكون في المجتمع من يحاول أن يوقع المرأة تحت تأثير الإغواء وخصوصاً في حالة انشغال الزوج بأمور الحياة. فالوفاء للزوج هي واحدة من الخصال والصفات الإنسانية لأنها نابعة أساساً من المثل والقيم الفاضلة التي تربوا عليها منذ الصغر. وهذا ما حاولت أن تظهره لنا الحكاية.

والى جانب ما تصفه الحكاية من صفات ايجابية للمرأة في المجتمع، فهناك صفات ومواقف سلبية تتصف بها بعض النساء في مجتمعنا ومن هذه الصفات الغيرة والحسد فنجد في حكاية (ابن الملك

والبنات الثلاثة) كيف أن الأختان يريدان أن يوقعان المشاكل والخلافات بين أختها وزوجها خصوصا بعد أن اكتشفوا أنها حامل فتذكر لنا الحكاية (فحسدتها أختاها، واتفقتا من أنها لو رزقت بولد لتمت سعادتها وزاد تعلق زوجها الأمير بها... فأضمرتا لها الكيد واغتمتا فرصة المخاض ودبرتتا ما املتا أن تتوصلا به إلى إخراج أختها من قصر الملك...)^(٤٣). فصفة الغيرة والحسد والصراع الذي قد يقع بين الأخوات متخذاً أشكالاً مختلفة وقد يبدو واضحاً وموجود في المجتمع خصوصاً إذا كان هناك نوع من الاختلاف مثلاً في المستوى الاجتماعي الذي انتهت به كل أخت.

وثمة حكايات أخرى تحاول أن تبين لنا العلاقة الزوجية بين الزوجين، فالخلاف قد يقوم بين الزوجين بسبب من الزوج أو الزوجة. ونتيجة لدكتاتورية الرجل في الأسرة وهذا يعود بسبب السيطرة الاقتصادية التي يمتلكها الزوج قبل أن تدخل المرأة معترك الحياة وتشارك الرجل العمل أو الإنفاق لذا نجد أن الزمام كان دائماً بيد الرجل وان المبادرة بالهجر أو الطلاق كانا في يد الرجل فقط... وقد يكون ذلك بسبب آخر هو جهل المرأة وتخلفها وضيق افقها في الماضي نتيجة لمكوئها في الدار دون أن تبرح إلى القبر^(٤٤). وكما هو معروف أن المرأة الموصلية هي امرأة محافظة وهذا يعود وطبيعة المجتمع الموصلية في التحفظ بالمرأة وتحديد حركتها حفاظاً عليها واهتماماً بها حتى بعد دخولها إلى بيت زوجها وقد انعكس ذلك في حكاية (المرأة والنعجة)، هجر الزوج زوجته الغبية لأنها ألّبت جميع ملابسها وحليها لنعجتها خوف أن تبوح لزوجها بأنها رأت ساقها وهي تكنس الدار فتذكر لنا الحكاية (كانت امرأة تكنس حوش دارها...، وفيما كانت المرأة تتحني انحصر ثوبها، وصادف في تلك الأثناء أن ثقت النعجة وصاحت.. ولجهل المرأة حسبت أن النعجة فهمت فعلتها... تريد أن تعلميني بأنك ستخبرين زوجي بهذا العمل... سأعطيك قلاوتي الذهبية أن كتمت الأمر عن زوجي)^(٤٥). هذا يفسر لنا من جانب آخر خوف المرأة من زوجها إلى جانب سذاجتها الكبيرة في طريقة التفكير آنذاك. وهناك حكايات حاولت أن تعكس لنا حقيقة واقع المرأة بعد فقدان زوجها. فمن المعروف في المجتمع العراقي ومن ضمنه مجتمعنا الموصلية إن المرأة إذا توفي زوجها تحافظ على ذكراه وتسعى جاهدة لتربية أولادها دون أن تفكر في الزواج خشية على أولادها من إصابتهم بفقدان الحنان وحرمانهم من عطف الأبوين. وتعكس لنا الحكاية الشعبية هذه الظاهرة^(٤٦) كما في حكاية (السلوة وابنها والنساجين) فتذكر لنا الحكاية (بان اختطف يد المنون الزوج وتركت الأم والبنات بلا عائل ولا منفق)^(٤٧)، وهذا الأمر لا يستمر على حاله بعد فقدان المعيل الرئيسي فنجد انه في مجتمعنا عند موت الزوج لا تستكين الزوجة بل تعمل في غزل الصوف هي وابنتها ليعناشا من هذا العمل، فتذكر لنا الحكاية (وأخذا يغزلان الصوف وينسجان ثياباً ويبيعان)^(٤٨) هذا مما يعطينا دلالات واضحة على أن المرأة في حالة فقدان معيها الرئيسي فإنها تعمل بأي مهنة تدر عليها أرباحاً لكي تحافظ على أسرتها وهذا فعلاً مستخلص من واقع المجتمع الموصلية.

خصائص المجتمع الموصلية من خلال حكاياته الشعبية

وثمة حكايات تحاول أن تبين عادات الزواج في مجتمعنا، وما هي الصفات المرغوبة عند اختيار زوجة الابن ففي حكاية (الفتاة الباسلة شمس النهار...) تذكر لنا (عثرت له والدته على فتاة موصوفة بالجمال الفائق، لطيفة الصورة)^(٤٩). وهذا مما يفسر لنا صورة المرأة عند اغلب الأسر الموصلية وهو البحث عن الفتاة الجميلة وهذه الصفة تهمهم بشكل كبير وهذا الاعتقاد قد يعود لأغراض التباهي والتفاخر أمام الأسر في المجتمع فنجد في حكاية (الخنفسانة) كيف حاولت أن تبرز لنا الصفات المرغوبة لدى المرأة لأجل الزواج الذي يكون مرغوب ومطلوب وتوصف لنا الحكاية الشكل الذي يكون مرغوب ومطلوب للمرأة فتذكر لنا (أن بيضة نقية وضروري قرمزيه)^(٥٠). وهي إحدى الصفات التي ترغب بها الأسرة الموصلية في مسألة الزواج.

ومع ذكر صفات المرأة في المجتمع لا بد أن نقف إلى جانب آخر يبين لنا من أن نبين سمات مجتمعنا الموصلية والتي تتمثل بتربية الأبناء ومدى طاعتهم لوالديهم، وذلك على أساس أنهم يشكلون الثمرات الحقيقية للزواج فمن يتأمل حكاية (الأشباح الثلاثة الأحمر، والأبيض، والأسود) فإنه يستوحي بدون شك تعاليم ديننا الإسلامي في الحث على طاعة الوالدين وهذا ما وجدناه في الحكاية عند التزام الابن الأصغر بتنفيذ وصية والده بعد وفاته واجتيازه الامتحان الصعب فتذكر لنا الحكاية (إن أبي أوصانا أن نحرسه قبره ثلاثة أيام... فسخر منه أخواه... أما هو فلم يرد عليهم... فذهب وجلس على قبر أبيه يحرسه)^(٥١). هذا مما يعكس لنا وفاء الابن الأصغر لتنفيذ وصية أبيه، فالوفاء لم يكن لأب فحسب بل حتى لإخوته وان تنكروا عن تنفيذ وصية أبيهم. فالوفاء بالعهد هي واحدة من أهم مرتكزات عملية التنشئة الاجتماعية التي تميزت بها الأسرة الموصلية، وذلك من خلال غرس وتوجيه القيم النبيلة والأخلاق الحميدة في نفوس أطفالهم منذ الصغر، وثمة مغزى آخر حاولت أن تبينه لنا الحكاية هي روح الأقدام والشجاعة من قبل الابن الأصغر في سبيل تحقيق وصية الأب وهذه أيضاً من السمات الموجودة في مجتمعنا. وأخيراً يمكن كذلك أن نستشف من هذه الحكاية أن الأسرة الموصلية أسرة وثيقة الصلات فيما بينهم وهذا ما عكسته لنا حكاية (الأشباح الثلاثة الأحمر والأبيض والأسود).

ومن جانب آخر فإن هناك من الحكايات ما يطلعنا على الواقع السياسي في المجتمع آنذاك فقدمت لنا صورة عن هذا الوضع والذي وجناه في حكايتي (القاضي والخباز) وحكاية (الملك قرقوش والصيد) ففي الحكاية الأولى يذكر لنا (كان القاضي بارعا جد في اجتلاب الرشوة)^(٥٢)، والثانية تصف لنا ميزات الملك فتذكر لنا الحكاية (قد ذاع صيته لشدة قسوته وعدم مبالاته بأرواح الناس ويأخذ البريء بالمجرم، وكان في حكمه مطلق التصرف لا يقيم وزنا لعرف ولا لدين ولا الأخلاق)^(٥٣). فهذه الصفات توضح لنا الواقع السياسي في المجتمع من خلال الصورة التي رسمتها الحكاية الشعبية لنا عن نماذج من الحكام المستبدين في المجتمع من حيث صفات العدل المنشر في حكمهم، إلى جانب صورة وحالة

الفوضى والرشوة والقسوة في الحكم وكل هذا هي في الحقيقة صور عن الواقع الذي يعيشه المجتمع آنذاك.

وثمة حكايات تعطينا لون آخر موجود في المجتمع الا وهو صراع القوة وهذا ما عكسته لنا حكاية (الشاهد الذي يحلف بالتين) فهذه الحكاية تصور لنا صراع القوة، فدائماً ما ينتصر القوي ويهزم الضعيف الذي يقع تحت تهديدات وسيطرة القوي، فالصراع الموجود في الحكاية بين الذئب والخروف بأنه صراع قوة فنجد قول الثعلب للخروف (كيف سولت لك نفسك يا غشيم، إن تصل إلى هنا وتدخل ارض آبائي وأجدادي بدون أن تأخذ رخصة؟ واخذ يهور ويصيح عليه حتى اخذ الخلطة من رأس الخروف المسكين)^(٥٤). فهذا الصراع الموجود في شخوص الحيوانات يمكن أن يشير إلى مأخذ يكون المجتمع فيها منساقاً إليها بشكل عام، والتي تتمثل بوجود صراعات وفوارق طبقية موجودة فعلاً في واقعنا ومنها الصراعات الطبقية بين الطبقة الكادحة والفقيرة أو بين الحاكم والمحكوم بل حتى في التفاوت في المراكز بالمجتمع.

وأخيراً هناك حكايات تحاول أن تبين لنا مدى إيمان الفرد بالمعتقدات الغيبية والخرافية كالجان والسحرة وهذا ما أوضحته لنا حكاية (الشواك والأبطال السبعة) عند استعانة الشواك بالجان الطيب في معالجة وحل المعضلات والصعوبات التي تواجه والتي لا يستطيع حلها بنفسه. فتذكر لنا الحكاية (وإذا بجني يخرج بصورة عبد اسود طويل القامة)^(٥٥) وهذا الأمر ما يقابله فهناك في مجتمعنا وجود دلائل تشير إلى إن هناك أناس لديهم تعلق كبير بالأمر الغيبية من خلال الذهاب إلى (السحرة والمشعوذين) وذلك لغرض فك الأعمال الشريرة كالسحر مثلاً وعموماً فإن مثل هذه الأمور موجودة بكثرة ولاسيما بين المجتمعات النسوية.

استنتاجات البحث

من خلال استعراضنا للمباحث السابقة فقد توصلت الباحثة إلى عدة استنتاجات.

إن الحكاية الشعبية تمثل واحدة من الأساليب التي يمكن من خلالها التعرف على المجتمع، وهذا ما رسمته لنا الحكاية الشعبية الموصلية بأساليب متعددة. فقد أظهرت لنا الحكاية السمات التي تميز بها المجتمع الموصلية التقليدي سواء كانت اقتصادية أم اجتماعية أم دينية.

١- الخصائص التي تتصف بها المرأة في المجتمع الموصلية التقليدي.

فقد أظهرت لنا الحكاية الشعبية الموصلية مجموعة من الصفات التي تمتاز المرأة في مجتمعنا، فأظهرت المرأة في عدة صفات منها ذكائها وعفتها وشجاعتها ووفائها لزوجها وطاعتها له إلى ابعاد الحدود والخوف من الزوج، فضلاً عن جهلها وغبائها وسذاجة تفكيرها إلى جانب صفات الحسد والخيرة. كما تهتم المرأة بالتجمل والظهور بالمظهر والشكل اللائق.

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

٢- الخصائص التي يتصف بها الرجل في المجتمع الموصل التقليدي.

فقد أظهرت لنا الحكاية شخصية الرجل الموصل بأنها شخصية دكتاتورية مسيطرة ومتهورة ومتسرة في اتخاذ القرارات كالطلاق مثلا. إلى جانب تلك الصفات السلبية فهناك صفات ايجابية يمتاز بها الرجل الموصل ومنها صفة الشجاعة والرجولة.

٣- الخصائص الاجتماعية التي يتصف بها المجتمع الموصل التقليدي.

فقد أظهرت لنا الحكاية مجموعة من الخصائص والتي تمثلت في طاعة الوالدين، احترام الزوجة لزوجها، تفضل البنين على البنات، صراع القوة، الإيمان بالمعتقدات الخرافية كالجان والسحرة إلى جانب صفات التواصل الاجتماعي وصلة الرحم بين الأقارب، وأظهرت لنا الحكاية الصفات المرغوبة في اختيار شريكة الحياة، كما كشفت لنا الحكاية عن شيوع ظاهرة الطلاق في المجتمع آنذاك، فضلا عن الصفات التي تبين العلاقة بين الحاكم والمحكوم والتي تمثلت بالظلم والقسوة والتعامل بالرشوة.

٤- الخصائص الاقتصادية التي تميز المجتمع الموصل التقليدي :

أ. فقد أظهرت لنا الحكاية مسألة اعتماد المرأة على نفسها في تربية أبنائها وذلك من خلال عملها وخصوصا بعد فقدان المعيل.

ب. يتسم المجتمع الموصل التقليدي بصفات التدبير والتخطيط والادخار والاقتصاد في أمور الحياة.

٥- الخصائص الدينية التي تميز بها المجتمع الموصل التقليدي

فقد أظهرت لنا الحكاية الورع الديني والتقوى والتمسك بتعاليم الدين الإسلامي ولا سيما عند الرجال، الإيمان بزيارة الأضرحة والمراقد الدينية. إلى جانب ذلك فقد أظهرت لنا الحكاية الموصلية طبيعة المهن الموجودة في المجتمع آنذاك والتي في أغلبها كانت مهنة التجارة وهذا يعود بحكم الموقع الاستراتيجي المهم للمدينة. فضلا عن الحياة الاجتماعية اليومية في المجتمع الموصل التقليدي والذي جسده لنا الحكاية الموصلية، إلى جانب ما أظهرته الحكاية من وصف ايكولوجي لمدينة الموصل من خلال الأسوار المحيطة بالمدينة.

التوصيات والمقترحات

إجراء دراسات مماثلة في أنحاء البلد للتعرف على خصائص المجتمع في مناطق أخرى

الهوامش

١- خليل محمد الخالدي، خصائص المجتمع الموصل- دراسة اجتماعية ميدانية، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل ٢٠٠٦، ص ٨.

٢- نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط٢، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٠٦-١٠٧.

٣- الحكاية الشعبية ودلالاتها التربوية

- ٤- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص ٤٥١.
- ٥- التراث الشعبي - دراسة <http://www.sranstory.com/commentg.htm>
- ٦- احمد زياد محبك، من التراث الشعبي - دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، ط، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ١٧.
- ٧- التراث الشعبي، مصدر سابق.
- ٨- كاظم سعد الدين، "الحكاية الشعبية العراقية"، مجلة التراث الشعبي، العدد ١٠، ١٩٧٢، ص ٧.
- ٩- ياسين النصير، "رؤية منهجية لقراءة الحكاية الشعبية العراقية"، مجلة التراث الشعبي، العدد الفصلي الاول، ١٩٧٢، ص ٨٣.
- ١٠- عبد الحلیم اللوند، نظرات في الزجل والأدب الشعبي الموصل، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٨٦، ص ٢١٤.
- ١١- احمد زياد محبك، مصدر سابق، ص ٣٨.
- ١٢- عبد الحلیم اللوند، مصدر سابق ص ٢١٤.
- ١٣- عبد الباري عبد الرزاق، "ملاحم الحكاية الموصلية"، مجلة التراث الشعبي العدد ١، ١٩٧٤، ص ١٠٧-١٠٨.
- ١٤- علي احمد محمد العبيدي، الحكاية الشعبية الموصلية، كلية التربية، جامعة الموصل، اطروحة دكتوراه غير منشورة لقسم اللغة العربية، ٢٠٠٣، ص ٣٠.
- ١٥- خليل محمد الخالدي، مصدر سابق، ص ٣٩-٤٠.
- ١٦- المصدر نفسه، ص ٣١.
- ١٧- المصدر نفسه، ص ٢٣.
- ١٨- موفق ويسبي محمود ومحمد حربي، الحياة الاجتماعية في الموصل، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد ٥، ص ٢٢١.
- ١٩- احمد الصوفي، خطط الموصل، ج ٢، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، ١٩٥٣، ص ٩.
- ٢٠- ازهر العبيدي، الموصل ايام زمان، ط ٢، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩٨، ص ١٢٤.
- ٢١- موفق ويسبي محمود ومحمد حربي، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- ٢٢- علي احمد محمد العبيدي، مصدر سابق، ص ٣٠.
- ٢٣- حسب الله يحيى، "المرأة في الحكايات الموصلية"، مجلة التراث الشعبي، العدد ٤، ١٩٦٩، ص ٧٤.
- ٢٤- عبد الباري عبد الرزاق، مصدر سابق، ص ١٠٧.
- ٢٥- طلال سالم، الفنون التقليدية الذائعة شفاها وأثرها في إرساء قيم فاضلة، مجلة التراث، الشعبي، ع ٢ س / ١٩٧٧، ص ٨٩.
- ٢٦- المصدر نفسه، ص ٩١.
- ٢٧- علي احمد محمد العبيدي، مصدر سابق، ص ١٣٥.
- ٢٨- أزهر العبيدي، مصدر سابق، ص ٢١.

خصائص المجتمع الموصل من خلال حكاياته الشعبية

٢٩- احمد الصوفي، حكايات الموصل الشعبية، المكتبة الفلكلورية (٤)، يصدرها مركز الفلكلور العراقي في وزارة الإرشاد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٦٢، ص ١٤.

٣٠- المصدر نفسه، ص ١٥.

٣١- المصدر نفسه، ص ٢١.

٣٢- المصدر نفسه، ص ١٨.

٣٣- المصدر نفسه، ص ٢٠.

٣٤- المصدر نفسه، ص ٢١.

٣٥- المصدر نفسه، ص ٢٢.

٣٦- المصدر نفسه، ص ٢٤.

٣٧- المصدر نفسه، ص ١٦.

٣٨- المصدر نفسه، ص ٣٤.

٣٩- المصدر نفسه، ص ٣٥.

٤٠- المصدر نفسه، ص ٣٩.

٤١- المصدر نفسه، ص ١١٥.

٤٢- المصدر نفسه، ص ٤٥-٤٦.

٤٣- المصدر نفسه، ص ٩٤.

٤٤- عمر محمد الطالب، اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص ٧٦.

٤٥- احمد الصوفي، مصدر سابق، ص ٢٦.

٤٦- عمر محمد الطالب، مصدر سابق، ص ٧٥.

٤٧- احمد الصوفي، مصدر سابق، ص ٥٩.

٤٨- المصدر نفسه، ص ٦٠.

٤٩- المصدر نفسه، ص ٤٣.

٥٠- المصدر نفسه، ص ١١١.

٥١- المصدر نفسه، ص ١٠٢.

٥٢- المصدر نفسه، ص ١٤٥.

٥٣- المصدر نفسه، ص ١٢٢.

٥٤- المصدر نفسه، ص ٩٨.

٥٥- المصدر نفسه، ص ٧٦.